

سلامة موسى : رائد الفكر التقدمي !

بقلم حماد مري

للانجليز المستعمرين وللرجعيين المصريين .. وكل هذا يستحق ان يروى وان يقف عليه الجيل الجديد .

ولدت حوالي عام ١٨٨٧ ورأيت القرن التاسع عشر بين الطفولة ، ورأيتته وهو خلو من الفش لم يلبسه شيء من مخترعات القرن العشرين وهذا ما لا يستطيع ان يقوله اوروبي لان ايماءات القرن العشرين كانت تبدو واضحة في اواخر القرن التاسع عشر في اوروبا. اما في مصر فقد حدث العكس .. وهو ان تراث القرن التاسع عشر ، بل بعض القرون التي سبقته ، بقيت عالقة بقرننا هذا ، وما زلنا في عام ١٩٤٧ نرى هذا التراث على اقله في طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط ، حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس ايضا حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كانها الشيء الطبيعي لمجتمعنا .

عندما كانت سن سلامة موسى ١٥ او ١٦ سنة ، كان يقرأ الجرائد اليومية ومجلتي المقتطف والجامعة ، وكانت بؤرة اهتمامه الذهني وقتئذ نظرية التطور التي كان يطلق عليها نظرية النشوء والارتقاء . ولقد انشأ هو اول مجلة اسبوعية عام ١٩١٤ اسمها « المستقبل » . وهو يعزو الى توجيه المقتطف النزعة العلمية التي لازمته طوال حياته ، كما يعزو اليها الاسلوب التلفزيوني الذي يكتب به . وهو يقول :

« ولكن المقتطف لم يستطع تكوين مدرسة فكرية لان الركود الذهني كان عاما كما كان الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا ، فلم يكن المجتمع المصري وقتئذ بجيزلنا ان نبوح ونعلن سرائرنا .. فكنا لذلك افرادا متفرقين نناقش الآراء والافكار في همس مستترين او في استيحاء يشبه الاعتذار اذا صادفنا غرباء . وكثيرا ما كنت اجد ان الحججة تنتقل من الراس الى الذراع ... فاسارع الى التسليم واعلن صحة العقائد والتقاليد ، وكذب الآراء والعلوم لان المفكرين كانوا في العادة اكبر منا جسما وسنا !!

ثم يقول : « وعرفت فرح انطون بعد ان اشتغلت معه في « اللواء » جريدة الحزب الوطني حوالي ١٩١٠ ، وعاش فرح في مصر الى عام ١٩٢١ حين توفي في الحادية والاربعين . وكانت وفاته نكبة على النهضة المصرية السياسية والادبية وكان من السوريين القلائل الذين اندفعوا في الحركة الوطنية المصرية اندفاعا تاما وكان سعد زغلول يحبه ويقدره . والحق ان فقد فرح عظيم فادح فلو انه عاش الى ايامنا مثلا لطبع النزعات الادبية والسياسية في مصر بطابعه ولعله كان يوجه الادب المصري هذه الوجهة الجديدة التي كان يتجهها . لاننا على الرغم من كل جديد في هذا الادب ما زلنا نعيش في اسر التاريخ بادب سلفي : نفكر بمزاج سلفي في لهجة سلفية واسلوب يتعارض والتجديد العام للفكر والحياة .

لقد كان فرح انطون بشري النزعة والايمان ، يؤمن بالانسان ويكره الاساطير الغيبية ، وكان يمتاز بالذهن الاستطلاعي ، يرود كل جديد في

يقول شاعر كبير عن كاتب عظيم متحدثا عن ادبه ونقده وخلقته في معرض رثائه :

وقفت حوله صفوف المعاني و صفوف الالفاظ من كل باب
ادب مستو وقلب جميع وذكاء يريك ضوء الشهاب
ممد رأي موفق ، عند حزم عند علم يفيض فيض السحاب
جل اسلوبه النقسي المصفى عن غموض ونفرة واضطراب
وسما نقده النزيه عن الهجر فما شيب مرة بالسياب
مؤثر اليأس والشقاء على الشكوى وان عضك الزمان بناب
كنت تجلو بالنفس والنفس تشوى من كؤوس الهموم والاصاب
الى ان يقول :

ونبتت الشراء تبذل فيه من ابناء في بذله شر عاب
ولو كان حافظ حيا يرزق لرثي صديقه سلامة موسى
بما هو اعمق واقوى من هذا ، بل لو كان صديقه الوفي شاعر
العراق الاكبر جميل صدقي الزهاوي حيا يرزق لرثاه بقلبه
وروحه قبل شعره ، ولكن هكذا تتخاطف المنون اقطاب
الشرق من الشعراء والمفكرين ، والموت نقاد على كفه ...
يقول سلامة موسى في كتابه العظيم الخالد تربية سلامة
موسى :

« ميلاد كل منا هو مفامرة مع القدر .. نخرج الى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير من ابوين لم نخترهما ونعيش في وسط تتكون فيه نفوسنا وتعلم علينا العقائد وطرز السلوك قبل ان نستطيع ان نفره . ثم تتوالى علينا الحوادث التي تقرر اتجاهاتنا في الحياة ، وتقع بنا الكوارث التي تنكف بها وننزل على مقتضياتها ، وعلى الرغم من اننا جميعا نصاغ في قالب البشرية ، فان كلا منا فذ في هذه الدنيا ، قد كتبت حظوظه او اكثرها قبل ان يولد ان خيرا ، وان شرا . ولذلك فان قصة كل منا هي قصة فذة مفردة تستحق ان تروى وتقرأ . »
ثم يقول :

« واحيانا تضطرب العصور التي يعيش فيها المجتمع فيبعث هذا الاضطراب وجدانا بالاخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماعي .. فيذكو حتى العقل الخامد ، وينبه حتى القلب الغافل .. وناخذ جميعا في التساؤل والاستطلاع .. ونرفض التسليم بالقسم السابقة او الطاعة للتقاليد الموروثة . ثم نتطلع الى المستقبل ونحاول ان نخترع الاساليب الجديدة للعيش . وقد قضيت عمري الى الان وهو يقارب الستين (١) في بقعة مضطربة من هذا الكوكب هي مصر ، وعشت هذا العمر وانا ارى انتقالها المتشر من الشرق الى الغرب : اي من آسيا الى اوروبا . وعانيت مخاضها وهي تلد هذا المجتمع الجديد الذي لا يزال طفلا يحبو كما عانيت كفاحها

(١) كتب تربية سلامة موسى الطبعة الاولى عام ١٩٤٧

الثقافة الأوروبية .. فهو اول من كتب عن نيتشه ومثت انا الثاني ، لان اول مقال صحفي لي كان في المقتطف سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الانسان » . وقد وصلت الى نيتشه مستقلا وانا في اوربا . وعقب عودتي من اوربا واتصالي به كنت لا اجد موضوعا اختلف فيه معه ، وكنا نتحدث عن الاشتراكية والنزعات الادبية الجديدة والسياسة في مصر فنكاد نتفق في كل شيء حتى في العقيدة الدينية .

وانني لا انسى تأثير نظفي السيد في . فقد كان قوة ايحائية جديدة ما بين ١٩٠٧ الى ١٩١٠ فقد نادى بان مصر للدهريين يجب ان يملكها المصريون دون الاتراك والانجليز . ووجد المثقفون في هذا املا جديدا يملأ وعي الامة للاسلام وللجديد فاقبلوا على الجريدة وشففوا بلطفي السيد .

لقد قلت ان اسلوب المقتطف كان علميا مقتصدا ، واني اخذت عنه ما اسميته اسلوب التنارفي ، ولكن اسلوب لطفي السيد كان موجزا مقتصدا ايضا وهو اشبه الاساليب باسلوب ابن المقفع واظن انني تأثرت به ايضا .

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف ، وفرح انطون ، ولطفي السيد من القوات التي صاغت شخصيته الثقافية الذهنية ... فالاول وجهه الى طريق العلم والثاني بسط له الافاق الاوربية للادب ، والثالث جعل منه مصريا يشعر بان مصر ملك له .

لقد كان سلامة موسى يتخير ويميز ما يقرأ ولهذا التخير او التمييز عوامل قد غرست في نفسه ، وهذه العوامل هي الثمرة التي نشأت من بذرة سابقة . فقد كان يعني في قراءته للمصحف بالاخبار الخاصة بالشعب كالمواليد والوفيات للاطفال ، او بما تجممه السكك الحديدية من ارباح ، او بما تقوم به الحكومة من عمل يختص بالفلاح ، او بما تؤديه ضمن عمل المجالس البلدية . ولم يكن هذا كله عبثا ، لان ثقافته المرسوعية تقوم على بذرة قديمة زرعها الظروف التي احاطت به في انجلترا عام ١٩٠٨ حين اكتشف عالما جديدا هو الاشتراكية ... فهو يعنى بالوقوف على ارباح السكك الحديدية لانه اشتراكي قديم يهتم بالاعمال التي تقوم بها الحكومة وتربح فيها . ون الافراد لان في هذا الربح البرهان على امكان قيام الاشتراكية والدليل على ان الامتلاك الحكومي او الامي خير من الامتلاك الفردي . وكذلك كان ينظر لاحصاء المواليد والوفيات نظره اقتصادية ترجع الى اسس اشتراكية لان وفيات الاطفال بكثرة مثلا تعوت الى قلة العناية بنظافة الطعام والشراب وصرف الاقدار اي انه يرجع الى الفقر . والمشاهد ان اولاد الاغنياء لا يموتون الا في الندرة ، اما كثرة الموت فتقع بين اولاد الفقراء . والشراء والفقر من الموازين التي يتعين بها المعنى الاشتراكي في الحكم .

والاشتراكية تجديد اجتماعي ، والذي يلاحظ ان الانسان لا يستطيع ان ينزع نحو التجديد في الاجتماع اي ايجاد هيئة اجتماعية اشتراكية جديدة دون ان يصير هذا التجديد نزعة لازمة فيه ... فهو يضطر في اخر الامر الى ان ينظر

بعين الانتقاد « اي الهدم » للسياسة والاخلاق والاديان والادب ، ثم يضطر الى النظر بعين التجديد « اي البناء » في هذه الشؤون كلها . لان النظام الاقتصادي هو الاساس الذي يكيف الوضع الاجتماعي للامة في سائر النظم .

وقد يظن البعض ان الادب ابعده الاشياء عن الاشتراكية - ولكني يجب ان اذكر ابسن مثلا ، فانه لم يجد وسطا يقبل نظريته في فنه الدرامي العظيم سوى الوسط الاشتراكي في انجلترا والذي تلاه في نقده للحياة الاجتماعية نقدا مريرا في الوسط نفسه تلميذه العظيم وخليفته برناردشو . ولقد جذبت الاشتراكية نظر سلامة موسى الى الادب الروسي وجعلته يهتم به قبل اهتمامه بالادب الانجليزي اذ هو قد عرف ديستيوفسكي وتولستوي وجوركي قبل ان يقرأ سكوت او ديكنز او مرديث بل قبل ان يقرأ شكسبير ، وينقده نقدا موضوعيا عضويا كما فعل من قبل تولستوي ، اذ ان شكسبير كان شاعر الملوك والامراء والسادة لا الجماهير .

ولكن النظر الاقتصادي للتاريخ الذي يمثل الناحية الثقافية للاشتراكية اضطره الى درس التطور او : التطور الاجتماعي الذي افضى الى الاشتراكية ثم التطور العضوي الذي انتهت بوجود الانسان والذي يسير نحو ظهور السوبرمان . ونظرية التطور هي البذرة الكبرى الثقافية . ولقد عرف العلوم التي نشأت في اوربا بفضل هذه النظرية وكانت ثمرة لها . ولقد حفزته هذه النظرية لكي يغير افكاره موفقة على النظم والتقاليد والاخلاق والعمران . فقد كان يقرأ كتابا صغيرا وقتئذ عن نيتشه فوجد من مؤلفات ذلك الفيلسوف باعنا لكي يبحث عن اصل الاخلاق وتطويرها . وكان سلامة موسى يرى ان نيتشه لم يهتد غيره الى مثل ما كتب هو عن الاخلاق .

الاشتراكية والتطور : هذان هما البذرتان لثقافة سلامة موسى ، ويمكن ان يرد كل ما ينزع اليه من تجديد في الاجتماع والاقتصاد والادب بل والفلسفة اليها . لقد كانت افكاره وآراؤه تقدمية ، وهذه التقدمية كانت طابعه الاصيل في الدعوة للادب الجديد الذي يمثل وينبع من روح الشعب . وفي الدعوة لحرية المرأة ومساواتها مساواة اجتماعية واقتصادية بالرجل . ولقد دعت نزعته الاشتراكية الاصلية الى المطالبة بتأميم منابع البترول في بلاد العربية كأساس لا بد منه لقيام الثورة الصناعية في الشرق العربي . ثم هو ينحو نحو السلام ويكره الحرب لخير البشرية . ولقد كان يقول ان جهود العلميين الذين استطاعوا فلق نواة الذرة وكللت اعمالهم بالنجاح جعلت التاريخ يبدأ صفحة واحدة . على ان الكشف الذي يجب ان يكون لخير البشرية لا للقضاء عليها ، ويجب ان يقوم السلام على دعامة قوية تتمثل في المساواة الاقتصادية وترك الحرية للشعوب لتختار الاوضاع التي تراها مناسبة لحياتها من حيث الحكم والتعليم وبناء مستقبلها

ولقد كانت نظرية التطور الباعث الاول لدرسه النظريات النفسية والمدارس المختلفة لعلم النفس . فالتطور هو الذي بعثه على درس العقل الباطن - ذلك العقل الذي يحتوي على آثار السلف ويكشف عن حقيقة طبيعتنا الحيوانية عارية دون قناع .

ولقد كان يكلف ويعنى بالكتب التي تغير الانسان وتبدل افكاره وتقلب تفكيره وتمده بتكييف جديد لحياته . ولقد ولد وعاش في القرن التاسع عشر - عصر الايديولوجيات - ذلك العصر الذي حفل بوجود هيكل وكانت ونييتشه وشوبنهاور وسبنسر وماركس ومل وماش وكيركيجارد . . . فقد عرف اثر الجدل في التاريخ عن هيكل وعرف راي شوبنهاور عن العالم كارادة وفكرة وعرف ابا الوضعية « اوجست كوت » وعرف راي مل في اصول الحرية وعرف وفسر وحلل وعقب على راي ماركس وانجلز في المادية التاريخية والاشتراكية العلمية وعرف رأي نييتشه في السوبرمان وعرف فلسفة سارتر وعقب عليها بالنقد والتحليل وكتب الكتب والمقالات العديدة في السيكولوجيا والتحليل النفسي ودرس اسن وشو وولز واضرابهم من الذين غيروا الافكار ووضعوا لبنات جديدة لبناء ديموقراطيات واشتراكيات معنوية لعالم يتداعي بناؤه الاجتماعي ولا يستند على قيم انسانية مثالية .

ومن اجمل وادق الاحساسات التي كنت اراها والمسها فيه انه كان يحيل اليأس الى رجاء عندما يكتب ويفكر ويضع المناهج لكفاحه الثقافي . فقد كان يقول : « اني احمل من الاهتمامات بمستقبل البشر ما يعد هموما شخصية لي لاني ادين بنظرة كدت اقول عقيدة التطور ، ولذلك لا اطيع عبث الاطفال الذين يقيدون حرية الفكر او يكرهون الكتب او يؤرخون الصناعة او يعنون بالتقاليد والخرافات اذ هم اعداء لتطور » .

ان الكتب « التغيرية » التي تغير حياة الانسان هي الكتب المقدسة عند سلامة موسى وهي التي تحدد اللحظات السيكولوجية لكي يتلقى الذهن الانساني التفاتات جديدة وايحاء جديدة وتوجيها جديدا وهذه الكتب كتبها العظماء دارون ولامارك واينشتين وتولستوى وبرناردشو وغاندي ، ممن رسموا ويرسمون خطوط الفهم والشرف لمستقبل الانسان . وان الذهن الذي تربى على هؤلاء المؤلفين واكل وهضم من مؤاندهم يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتاب التافهين والطغاة العابثين من الحكام . واذا كان الانسان المثقف لا يتسامح ازاء الجرائم العادية من زنا وسرقة وقتل ونهب فهو لا يستطيع ان يتسامح ازاء جريمة تعالو على جميع الجرائم في الخسة والندالة والحقارة . . . هي الحجر على الذهن البشري ومنعه من التطوير . . . فهذه اكبر خيانة للانسانية .

لقد كان سلامة موسى يقرأ ويدرس ويقارن، ثم يكتب وينقد ويسأل ويستخرج العبرة وبذلك استطاع ان يوجه التفكير المصري وجهة جديدة تغاير الكثير من كتب الجيل ، فهو لم يعن باللفظ ولا بظل اللفظ وانما عني بالمعنى وعنى اكثر بتوكيد هذا المعنى في ذهن القارئ .

ان كتبه المدونة في الادب والاجتماع والتربية والسيكولوجية والتاريخ المصري القديم والحب هي دعوة علمية منظمة لتغير الواقع الذهني المثقف ولايجاد جيل جديد يعمل في سبيل نهضة عامية شاملة تمشي والتطور الاجتماعي لحياتنا .

لقد نادى في حياته الطويلة بضرورة تصنيع مصر بل وبلاد العربية جميعا ، وكانت فلسفته في الدعاوة للصناعة اننا يجب ان نؤسس المصانع بدل المدارس واننا يجب ان نتعلم بالعمل . واذا كان من اقوال « جون ديوي » الفيلسوف الامريكي الكبير ان المدرسة جنين المجتمع ، فقد كان سلامة موسى يرى ان المصنع هو جنين المجتمع . واذا امكننا اشاعة الصناعة بين الشعب امكن الشعب ان يخترع الاختراع الاجتماعي بنفس الهمة والقوة التي يخترع بها الاختراع الآلي على ان يبني هذا كله على اساس سليمة في الحكم الديموقراطي للامة ، وبذلك نصل الى تكسوين المجتمع الصالح .

انني اذكر ذلك المقال النقدي المبدع الذي كان يظهر صبيحة كل احد في الاخبار بعنوان « يوميات - يكتبها سلامة موسى » لقد حررنا منه كما حررنا من الانسان العظيم الذي عاش ومات انسانا كبيرا يسبق تفكيره جيلانه بنصف قرن على اقل تقدير .

لقد تنكر المجتمع المصري وبعض افراده ممن يملكون . . . تنكروا لرسالته وذكروا عليه مذهبه الفكري ورسالته الكبرى في الحرية والثقافة الانسانية ، فلم يعين - مع شديد الأسف - في هيئة من هيئات الثقافة المعترف بها كالمجمع اللغوي وما شابهه من مجامع ومنشآت رسمية وشبه رسمية مع ان ما اداه سلامة للغة العربية ولمفهوم الادب الحديث وللثقافة العامة يعد فخرا للذهن المصري المعاصر .

والان ، فقد رحل سلامة من هذا العالم المليء بالحدق والضغينة ، واصبح في ذمة التاريخ . وسوف تصرف الاجيال مكانة سلامة العلمية بعد ان تدوى الاحقاد وتتوارى النفوس الصغيرة ويختفي التصعب الفكري النميم .